وهم الخلود

بقلم : توفيق يوسف عوّاد

أخي الكريم

وددت لو كانت رسالتك الثانية امامي لاجيبك عن بعض ما فيها . ولكني مزقتها أو طرحتها — لا أذكر . هوّن عليك ، لقد قرأتها قبل ذلك غير مرة وذقت غير مرة حلاوة ما قدّمت فيها من ثناء. فأنا مازلت بالرغم من كل شيء، انسانا. ولا تعتب على التمزيق أو الطرح خارجاً ، فتلك عادة لزمتني منذ دهر ، اي منذ زهدت بقيم الحبر والورق ، وعزاؤك انني لااحتفظ في بيتي بنسخة من كتاب لي ، ولا من جريدة كتبت فيها أو كتبت فيّ — والله يعلم المقادير — وأن مكتبتي ، وكانت تعد المئات من المجلدات ، قد أكلها الفار والغبار ، وكلما درج طفل من اطفالي تركته يجهز على نصيبه منها وعيناي تنظران .

لذة «سادية» أعرفها في نفسي منذ الصغر ، ولكني ماحسبت يوما انها ستمتد الى هذه الاشياء ... وربما وقفت على المزق والبقايا فيأخذني ما خذ امرأ القيس حينما وقف على الأطلال ، أتناولها بيديّ الاثنتين وأتلمس باصابعي الحيوات الموزعة فيها ، فاذا هي تستعيد ، في طرفة عين ، حجمها وشكلها السابقين ، لحمها ودمها وانفاسها ، واذا هي اشخاص قريبة حبيبة تناجيني بذوات صدورها ، فأنحني عليها أمسح جراحاتها وأسألها عن أوجاعها ، واكاد ابكي .

تقول لي في رسالتك — اذكر ذلك جيداً — « وددت لو أمزّق باسناني من صرفك عن دنياك ودنيانا ودنيا الخلود . » لكأنك خبطتني على رأسي بهذه الكلمات ، فصحوت كما يصحو السكران ، وانتقلت الى دنيا أخرى لست ادري هل هي دنيا الخلود التي تشير اليها ، ولكنها في كل حال وطني الذي هجرته والدنيا التي سلخت فيها انضر ايامي وعمرتها بأمانيّ واحلامي ، وكانت لحظة غمرتني فيها فرحة العائد . لحظة من لحظات العمر لك فيها عليّ اليد . ثم لم البث أن سمعت ضحكتي ، فتحسست نفسي فأذا أنا حيث كنتُ وتعهد . فما كان اغناك واغناني .

الخلود ! ما أهون ما تجري هذه الكلمة الضخمة ضخامة الارض والسماء في شق القصبة ! ويقيناً ، لو وعت الاقلام ما تنطق به من كبائر لانشقت وذهبت شعاعاً . ولكن ، تلك هي معجزتها التي لا تدانيها معجزة : انها قد تفجّر ، بمجرد انها انغمست في الحبر ومسّت الورق ، قنبلةً ذرية قد تغير وجه العالم ، وهي اضعف ما تكون القصبات . وكل الظن ان هذا هو الخلود الذي تذكر ، والذي وصفه ابو الطيب المتنبي ، إذ وصف المجد ، وكأنه يصف تلك القنبلة :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

سئل الكاتب الفرنسي الشيخ « بول ليوتو » : « ما تعتقد الاجيال المقبلة قائلة فيك ؟ » قال : « وما تهمني الاجيال المقبلة وما تقول » ؟ فقيل له : « ألا تكتب للخلود ؟ » فضحك ضحكته الدرداء وقال : « الخلود ! الخلود ؟ ما شأني به بعد ان اصير تراباً في التراب ؟ انا أومن بالسرور ، باللذة . وانما اكتب لأنني اجد في الكتابة سروراً ولذة ، لأنني احيا في الكتابة بكل جوارحي . »

شيء يقرب الادب من السباحة ، او المصارعة ، او تسلق الجبال . والفرق ان هذه رياضة جسدية ، وتلك روحية . مع العلم ان الجسد ليس غريبا عنها . وكثيراً ما اتفق لي ان اذوق — وانا اكتب او اقرأ — ارتعاشات اشبه ما تكون بارتعاشات الوصال . ورب كلمات اطيب في الفم من القبلات .

بيد ان ذلك ، على جلالة قدره ، دون الغاية . فالايمان بالخلود نار تأججت في نفوس الملهمين اطلاقا . فاذا خبت تلك النار المقدسة خبا الالهام . والكافر بالخلود عاجز ، في الغالب ، عن الابداع .

ولقد كان زمان كنت أومن فيه بالخلود واعيش في دنياه . غرفة عارية وكسرة خبز ، واحتقر اصحاب المدائن العامرة وارباب القصور . هيكل رفعت عمده على ذراعي وطليت سقفه بدم القلب ونور العينين ، واقمت فيه صنمي رباً اعبده واحرق له البخور . اما اليوم فقد انهار الهيكل وتحطم الصنم . اي ريح طاحت به ؟ في اي ارض استقر حطامه ؟ لست ادري . كل ما ادريه — وهذه هي مأساتي — انني انتقلت بعد ذلك الى غير واحد من هيا كل الناس لأعبد ما يعبدون من اصنام ، فلم يمسّ الايمان بواحد منها وتراً في نفسي ، وحطمتها بيديّ على رأسي .

ترى ، يا أخي ، انني اعاني شقاء الملحدين . وإنه لاعظم الشقاء .

وبعد ، هنيئاً لك نارك وربك ، وهيكلك ودنياك ، دنيا الخلود كانت ام دنيا الوهم . وما همك الخلود بعد أن تصير تراباً في التراب ؟ لقد عشتَ الخلود كله في الايمان به والعمل له .

طهران — **توفيق عواد**